(دموع على الطريق)

هدير مصطفى

جلست على الأرض بجانب الطريق، نظرت إلى السيارات التي يزدحم بها المكان ،كانت تمر أمام ناظرها مع مرور الذكريات، بدأت الصور تتخلل إلى ذاكرتها، رأت أمام عينيها صورة تجمعها مع بعض الأطفال، تذكرت حينما كانت تلعب وتلهو في الأرجاء، كانت طفلة لم تتعدّ العشر سنوات؛ كم كانت جميلة للغاية، عيناها زرقاء لامعه، ووجهها مفعم بالحياة وها هي الآن أصبحت شابة يافعة، ابنة الثلاثين ربيعًا، مدت يدها علي وجهها لتلمسه بخفة وهدوء، لتتذكر نظرات الناس لها كانت نظرات خوف.... اشمئزاز .... رهبه .... رفض .... وكأنهم يسلبونها حياتها، تذكرت حين شب الحريق في منزلها لينشأ عن هذا الحدث موت أهلها جميعًا ليتركوها خلفهم علي قيد الحياة لكن مع وجه مشوه، نزلت دموعها صارخة متسائلة -ماذا يعيبني فها هو القمر بالرغم من جماله إلا أن ما به من ندوب لا يغير من هالته ونوره- نهضت عن الأرض في محاولة منها لاستعادة رباطة جأشها، أخذت نفسًا عميقًا وتنهدت مطولًا وكأنها اتخذت للتو قرارًا هامًا سوف يغير مصيرها، صارت في طريقها دون أن تلتفت لأحد وبعد دقائق معدودة وصلت إلى وجهتها .. مطعم صغير به بضعة موائد للطعام متفرقة وديكور هادئ وراقٍ، دلفت إليه تحت نظرات اشمئزاز ونفور الزبائن الذين لطالما اختبأت منهم داخل المطبخ على الرغم من أنها مالكة المطعم، لكن دائمًا ما كانت تخشى ما

تراه الآن في أعينهم، توجهت إلى ذلك الرجل الخمسيني الجالس وراء مكتب المدير لتنظر له قائله بهدوء:

- هلا نهضت من مكانك؟

نظر لها متعجبًا أمرها فهو عمها الأكبر المدعو "مجدي" المتصرف الوحيد في أملاكها بعد وفاة أهلها... منذ ذلك الحين وهو يفرض سيطرته عليها مستغلًا مهاراتها في إعداد الطعام وتمكنها من الابتكار فيه، لينسب شهرة المطعم له بحكم إدارته، طالت نظراته حتى استطاع أن يقول:

- ما هذا الهراء، أنا هنا المدير !

- لكنني صاحبة هذا المكان ..

- أظنكِ نسيتِ أني عمك...

صفقت بيدها وهي تقول في محاولة لاستفزازه:

- لا ...لكني قرّرت أن أدير مطعمي بنفسي.

قاطعها صوت قهقهته العالِ الذي امتزج بالسخرية وبعد لحظات قال:

- أنتِ تديرينه؟! بوجهكِ المشوَّه هذا كيف؟!

كانت تلك الكلمات كخنجر يُغرز في قلبها، لكنها لم تعِرها اهتمامًا فقد اعتادت الأمر فأجابته بابتسامة هادئة قائلة:

- نعم، سأديره بذات الوجه المُشوّه.

كان برودها ولامبالاتها بما قاله عمها كفيلين بأن يجعلاه يُستشاط غضبًا ليخرج مفاتيح المطعم ويضعهم علي المكتب وهو يقول:

- ها هم مفاتيح مطعمكِ دعينا نرى إبداعاتك.

ثم أعطاها ظهره فلمّا كاد أن ينصرف استدار قائلًا:

- نصف ساعة وستصلك محتوياتك، (وأردف مشيرًا بسبابته في وجهها) ابحثي لنفسك عن مكان آخر تعيشين فيه.

ابتسمت وحركت رأسها بالإيجاب بغرض أن تزيد غضبه ليزفر في ضيق، ثم تركها وانصرف لتجلس علي الكرسي خلف المكتب، تسند رأسها إلى الخلف وتعود بذاكرتها إلى الماضي منذ سنوات ولت، تتذكر حين وطأت قدماها ذلك المطعم أول مرة معه حين توجهت لتجلس علي ذات الكرسي فأوقفها قائلًا:

- أين تتجهين ؟

أجابته ببراءة:

- سأجلس على مكتبي؟

ليردعها هو بنبرة غاضبة:

- من أخبركِ أنه مكتبكِ ثم تابع بحزم "أنا المدير".

تداركت الأمر سريعًا فعادت تجادله:

- كنتَ تديره لأنني لم أكن قد بلغت السن القانونيّ، لكني الآن راشدة.

لم تكد تنهي كلماتها حتى قاطعها قابضًا على ذراعها متجهًا بها نحو المطبخ ثم قال بعد أن ترك يدها:

- مكانكِ هنا لا تخرجي منه أبدًا، وإلا سيفر الزبائن فور رؤية وجهكِ.

ألقى بقنبلته ليتركها ويخرج من المطبخ صافقًا الباب خلفه بينما تستفيق هي من شرودها علي وعد تقطعه علي نفسها بأنها حتمًا ستكون الأفضل

حتى لو واجهت الانتقاد والنفور من الناس، كانت تظن أن الأمر سهل، لكنها نسيت أن رؤيتها من الخارج تختلف عن الداخل كثيرًا، فهو في حقيقة الأمر صعبٌ للغاية لدرجة أنها قد قاربت علي الانهيار، فكل من يزور المطعم ويرى وجهها ويعرف أنها صاحبته وأنها شبه مقيمة فيه وأنه في كل مرة سيأتي فيها إليه حتمًا سيراها، كان يخرج خروج بلا عودة، كانت تري في عيونهم نظرات كثيرة ومختلفة ... ما بين شفقه ...عطف... اشمئزاز ... لكن أكثرهم كانت نظراتهم تنم عن النفور ... حاولت كثيرًا أن تتغاضى عن الأمر وأن تتعايش معه، لكن ضاق ذرعها ..... خرجت لتتنزه لبعض الوقت متأملة أن تُروح عن نفسها ولو قليلًا.... خطر علي بالها أن تزور مُدَرِّستها، التي لطالما كانت أمًا ثانية لها منذ وفاة أهلها، حتى بعد أن تركت المدرسة بعد الحادث هربًا من الانتقادات لم يُغيِّر ذلك شيئًا بينهما.....وصلت إلى وجهتها لتدق جرس المنزل، فتحت لها امرأة خمسينية العمر ذات ملامح هادئة تسر الناظر، ابتسمت عند رؤيتها فبادلتها الابتسامة هي الأخرى ومن ثم احتضنتها، دلفا داخل المنزل وبعد مرور بعض الوقت في الترحاب والحكاوي، نظرت إليها من بين ضحكاتها قائلة: ــ لا تعرف شفتاي طريقًا للابتسامة إلا برفقتكِ، ملأتِ ذاك الفراغ الذي تركه أهلي.

ضمّتها وهي تقول:

- كذلك أنا لا يؤنس وحدتي سواكِ.

سألتها بخفوت :

- ألم تحِن عودة ابنكِ بعد؟

أجابتها بنفس الصوت الخافت:

- لقد أنهى دراسته، واقتربت عودته.

توجّهت بالدعاء :

- يرجع بالسلامة .

فباغتتها قائلة:

- عندي لكِ مفاجأة .

تهلل وجهها متأملة أن تسمع خبرًا يسر خاطرها فنظرت لها بابتسامة وأردفت:

- أشرف كان يدرس طب وتخصص في جراحة التجميل.

عبس وجهها وتنهدت بخيبة أمل قائلة:

- لا... لن أعيد الكرة ثانية، لقد اكتفيت من كلام الأطباء، ولن أطرق عياداتهم مرة أخرى.

نظرت لها بحنان بالغ وأردفت:

- لا تفقدي الأمل حتى لو كان واحد في المائة.

ثم ساد الصمت بينهما لدقائق معدودة حتى كسرت حاجز الصمت لتقول في محاولة منها لتغيير الموضوع...

- لديّ مشكلة.

ترقَّبت كلماتها بدقة مستفسرة:

- المطعم، لم يعد كسابق عهده، الزبائن ينفرون من وجهي، لا أحد يأتي ويعود ثانية.

- والحلَ ؟؟

تطرقّت إليها بسؤالها لتُلقي إليها بإجابة سريعة:

- سأرتدي برقعًا، لكي يُخفي تلك الندوب.

عزمت علي إتمام الأمر وبالفعل ارتدت النقاب لتخفي خلفه ندوب وجهها، لتمر الأيام سريعًا يومًا بعد يوم، وبفضل حبها لعملها وتفانيها أصبح المطعم هو بيتها الأول والأخير، تسهر طوال الليل تحضر الوصفات وطوال النهار تعمل كمديرة للمطعم ولا تحصل من اليوم سوى على بضع ساعات للنوم ليذيع صيتها في البلد ويكتسب مطعمها شهرة لا مثيل لها لدرجة أن وجهها المشوه لم يعد عقبه تقف أمامها؛ بل بات الأمر عاديًا بالنسبة للجميع. ذات يوم كانت منهمكة في إتمام عملها فدلف إليها عمها وهو ينظر في أركان المطعم بحقد بينما توجهت له قائلة:

- ما الأمر يا عمي؟

انتبه لها وأدرك أن التي تحادثه تلك ليست سوى ابنة أخيه فنظر لها ضاحكًا بسخرية ليتحدث بصوت عالٍ، محدثًا جلبة في المكان ليلفت انتباه كل من في المطعم إليهما قائلًا:

- هل هذا الابتكار الجديد الذي تختبئين خلفه من عيون الناس؟

ثم تابع بسخرية:

- أقصد تحتمين فيه.

التفت الناس حولهما وهم يتهامسون متسائلين عن سبب هذا الكلام البغيض، بينما هي كانت تنظر إلى أعينهم التي كانت تنهشها في حين أكمل هو حديثه غير مباليًا بما تعانيه قائلًا :

- لا .....لا... لقد أشفقت عليكِ حقًا، دعينا نعقد صفقة معًا، تعودين لمكانك

وأتولّى إدارة المطعم من جديد.

تنهدت بألم وهي تنظر إلى الناس المتجمعة حولهما لتقول بضعف وألم:

- أعرف أنكم تتساءلون عن أمري، سأخبركم قصة قصيرة عن فتاة ذات عشر سنوات، احترق منزلها، مات أهلها، فارقوا الحياة جميعًا عداها، تركوها خلفهم وحيدة، حيّة جسديًا لكنّها مدفونة منذ سنوات معهم تحت الأنقاض، ثم أشارت لنفسها بألم وتابعت: تلك الفتاة ليست إلا أنا.

أنهت كلماتها ثم نزعت البرقع عن وجهها بكل تلقائية لتسمع صوت شهقات الناس حولها، تنهدت إثر صيحاتهم ثم مدت يدها إلى وجهها لتتحسسه بهدوء قائلة والدموع تنهمر من عينيها:

- ليس ذنبي..... ما أحب الله عبدًا إلا ابتلاه، وها أنا قد ارتضيتُ ذاكَ، فلماذا أنتم تعاقبونني؟

بدأت الفتيات بالتوجه إليها يمسحنَ دموعها بأياديهنّ ويحتضنَّها كل واحدة منهن لبرهة مشفقات علي حالها، بينما ألقى هو نظرة في أنحاء المطعم فلما لم يجد أحدًا من الزبائن قد خرج ولا اشمأز منها بل جميعهم متعاطفين معها، أدرك أنه لا فائدة من محاولاته فهي لن تكره نفسها مرة أخرى، خرج من المطعم تاركًا كل شيء، انتهت الأمور ومرت على خير، جلست علي مكتبها وأسندت رأسها للخلف بسبب تعبها من كثرة العمل، غفيَت للحظات لتستفيق بعدها على صوت أحدهم يناديها ...

الشاب:

- لو سمحتِ يا آنسة.

فتحت عينيها لتجد شابًا هادئ الملامح يرتدي بذلة سوداء مع نظارة طبية

تضيف علي ملامحه الرقي، تنحنحت وهي تعدل حجابها في محاولة منها لجذبه علي وجهها علها تخفى شيئًا من ندوبه لتقول..

- تحت أمر حضرتك.

ابتسم لها بهدوء ليقول بعذوبة:

- لن آخذ من وقتك كثيرًا، فقط عشر دقائق.

جلس الشاب علي الكرسي المقابل لها فسألته عن مشروبه المفضّل، بينما تحدث هو بتلقائية:

- لا أريد شيئًا ثم عرّف عن نفسه "أنا دكتور أشرف إبراهيم اختصاصي تجميل و...."

قاطعته بحدّة قائلة ...

- مفهوم وكعادة جميع زملائك، جئت لتسخر مني، وتعطيني أملًا كاذبًا في معالجتي، تريد أن تجعل مني فأرًا لتجاربكَ، أليس كذلك؟ طلبك مرفوض يا دكتور.

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يحاول استيعاب ما مر به منذ لحظات ليقول:

- أظنكِ تسرعتِ في الحكم عليّ، كان حريًا بكِ أن تسمعيني ومن ثمّ تصدرين حكمكِ ثم تابع أنا مرسلٌ لكِ من طرف الأستاذة ناهد "...

تساءلت في دهشة:

- ماذا؟

بينما تابع موضِّحًا:

- مدرِّسة الابتدائي التي بقيتِ على اتصال بها حتى الآن....

أومأت برأسها كتأكيد على كلامه ثم أردفت:

- نعم ومازلنا على تواصل حتى الآن لكن أنت.....

قاطعها :

- أنا ابنها الذي وعدتكِ بمساعدته لكِ ما أن يعود.

طأطأت رأسها بخجل من هجومها عليه ثم اعتذرت عما بدر منها تجاهه، بينما تغاضى هو عن الأمر قائلًا:

- لا عليكِ، لكن يجب أن نذهب الآن.

تأمّلت ملامحه الهادئة ثم تساءلت:

- إلى أين؟

أجابها بنفس الهدوء:

- إلى المشفى لإجراء الفحوصات.

ابتسمت له ثم ذهبت معه لتجد نفسها وسط غرفة مجهزة خصيصًا لها، وفي انتظارها كانت تجلس مدرستها التي لطالما كانت لها أمًا حنونًا، تعطف عليها وتعوضها عما تعاني، ارتمت في أحضانها تبكي.

فتوجهت لها بالسؤال عن سبب بكائها، لتخبرها بأنها الإنسانة الوحيدة التي لازالت تساندها في محنتها، ربتت على كتفها مطمئنة لها مثلما كانت تفعل دائمًا، وأخبرتها بحنان:

- لطالما اعتبرتكِ ابنتي.....

- لكنني لن أُجري عمليات.

باغتتها بقرارها المفاجئ ما جعلها تُقبل عليها بنفس الملامح الثابتة:

- لطالما أخبرتكِ أن ابني سيساعدكِ، أعطه الفرصة وتوكّلي على الله.

نظرت لها والدموع تترقرق في عينيها قائلة:

- أخاف أن تفشل ويتشوه وجهي أكثر.

جاءها رده من الخلف مقاطعًا لها:

- وربما تنجح وتعودين أجمل من السابق.

نظرت له بأعين دامعة من وقع الفكرة التي طرحها عليها، لكنها سرعان ما بادرته بخيبة أمل ...

- ربما يحدث وربما لا.....

لكنه عاد يخبرها بإصرار:

- نسبة النجاح تفوق نسبة الفشل.

فابتسمت رغمًا عنها، توكلت على الله وخاضت التجربة على الرغم من كمية الخوف والقلق اللذين كانا يملأن قلبها، إلا إن حبها وأملها في الحياة جعلاها تجازف بصدر رحب وبعد بضعة أيام خرجت من المشفى، لكنها خرجت فتاة ثانية مختلفة تمامًا عن تلك التي دخلت، وجهًا جميلًا لروح أجمل، بدأت في ممارسة عملها بحب وحيوية فلم يعد بها ما تخجل منه أو تتخفي بسببه من أعين الناس.

تمت بحمد الله